سيف بن عمر: الأخباري والمؤرِّخ
رؤيـةٌ نقديـة

ويلفرد مادلونغ ■

شكَّل سـيف بن عمر الأسـيِّدي التميمي ـ وهو مؤرخ كوفي كتب ما كتبه زمن هارون الرشـيد ـ شـخصيةً أُثير حولها الكثير من الجدل، وذلك سـواء بين العلماء المسـلمين المبكرين أو بين المؤرخين المحدثين. وقد تجاهله أغلب جمّاعي الأخبار التاريخية المبكرين؛ شـأن البلاذري وعمر بن شبة، كما جرَّحه أصحاب الجرح والتعديـل بصفته غير موثـوق الرواية؛ لكنّ المـؤرخ الكبير الطبري استند إليه استناداً واسعاً في ما تعلق بتاريخ الخلافة المبكرة من أبي بكر إلى علي. وعبر نقول الطبري عنه أثرت رواية سـيف هذا تأثيراً بالغاً في الكتابة التاريخية [الإسطغرافيا] السُنيَّة المتأخرة.

في الأزمنة الحديثة، اتهم يوليوس فلهاوزن J. Wellhausen، في مونوغرافيا لا تُضاهى، سيفاً هذا بأنه إخباريٌّ ذو خيال جامح وذو نزوع مغرض في ما يرويـه، وينبغي ترك مروياتـه ما إن تخالف مصادر أخـرى[1]. هذا وقد دعم نظرة فلهاوزن هـذه ليوني كايتاني

1 ـ J. Wellhausen, “Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams”, in Skizzen und Vorarbeiten, vol. 6, Berlin,1899.

■ أكاديمي ومفكر ألماني، جامعة أكسفورد.

L. Gaetani في مصنفه «حوليات الإسلام»، كما ساندته دارسون آخرون في فجر القرن العشرين. وفي النصف الثاني من القرن عينه قامت ثمة ردة فعل على نظرة فلهاوزن المذكورة، تبناها ـ أول من تبناها ـ ألبرشت نوخت A. Noth[1]، وعززّها دارسون آخرون، نظير مارتن هايندز M. Hinds[2] وفريدريك دونر F. Donner[3]، ولا سيما إيلة لانداو ـ تاسرون E. Landau-Tasseron[4]، التي ذهبت إلى أنه ينبغي النظر إلى سيف بن عمر ـ شأنه في ذلك شأن سائر الإخباريين لا فرق ـ بوسمه راوية وشت مروياته بتقليد تاريخي لئن صح أنه مخالف لغيره من التقاليد النقلية، فإنه ليس يصح اعتبار ما يرويه أقل المرويات صدقية وجدارة بحيازة ثقتنا. على أنه في الفترة الأخيرة تم استئناف تواتر سلسلة الإدانات الصارمة لسيف هذا، وذلك سواء من لدن پاتريشيا كرون P. Crone في مراجعتها[5] لنشرة مخطوطة تمَّ اكتشافها مؤخراً لرواية سيف عن مقتل الخليفة عثمان وعن موقعة الجمل[6]، أو من لدن خالد يحيى بلانكنشيپ K.Y. Blankinship في المدخل الذي قدّم به قسماً من رواية الطبري للفتوحات المبكرة التي استند فيها إلى سيف[7]. وبعد أن بيّنت كرون أن «رواية سيف منحازة»، انتهت واثقةً إلى القول بأنه على ضوء النشرة الجديدة لجزء من مصنفات سيف هذا، فإنه: «يلزم التخلّي عن نظرة نوخت؛ لأنها [كانت تُعَدُّ] خَلاصيةً إن هي كانت في

1 ـ A. Noth, “Der.. Charakter der ersten grossen Sammlungen von Nachrichten zur frühen Kalifenzeit”, in Der Islam 47 (1971), p. 168 - 199.

2 ـ M. Hinds, “Sayf b. 'Umar's Sources on Arabia”, in Studies in the History of Arabia 1. Sources for the History of Arabia, part 2, Riyiid 1979, p. 3 - 16.

3 ـ F. Donner, “Sayf b. 'Umar”, in EP; idem, transl., The History of al - Tabari. Vol. 10: The Conquest of Arabia, Albany 1993, lntrod, p. xiv - xx.

4 ـ E. Landau - Tasseron, “Sayf b. 'Umar in Medieval and Modern Scholarship”, in Der lslam 67 (1990), p. 1 - 26.

5 ـ Journal of the Royal Asiatic Society (1996) p. 237 - 40.

6 ـ سيف بن عمر التميمي، كتاب الردة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعلي، تحقيق: قاسم السامرائي، ليدن 1995 (سوف نشير إليه من الآن فصاعداً تحت مسمى: سيف)

7 ـ M. Y Blankinship. transl., The History of al - Tabar - i. Vol. 11: The Challenge to the Empires, Albany 1993, Introd, p. xv - xxix.

وقتها»[1]. هذا وقد عمد بلانكنشيب ـ مهتدياً في ذلك بالدراسات المبكرة للباحث الشيعي مرتضى العسكري[2] ـ إلى اتهام سيف بأنه إنما اختلق جماعةً من صحابة النبي ومن الأبطال ومن الأخبار اختلاقاً، متهماً إياه بكونه مختلق أخبار يضعها وضعا.

تستند هذه الدراسة إلى نظرة مفادها أن سيفاً ـ بحسبانه أخبارياً ـ إنما حفظ ـ بل على الأغلب نقل إلينا ـ مادة إخبارية ذات قيمة دائرة على الحقبة المبكرة من الإسلام. بَيْدَ أنه، باعتباره هذه المرة مؤرخاً، إنما كان راويةً وضاعاً إيديولوجياً منحازاً وغير نزيه. والحال أن هذا التقويم إنما استند استناداً واسعاً إلى نقل مرويات سيف من لدن السري بن يحيى عن شعيب بن إبراهيم التميمي فإلى سيف الذي استندت إليه القطعة الحديثة الاكتشاف والجزء الأكبر من استشهادات الطبري، كما استشهادات المؤلفين المتأخرين شأن ابن عساكر[3] وابن أبي بكر الأشعري[4]. وبالنسبة إلى التاريخ المبكر، المتضمن للردة وللفتح الأول للعراق، فإن الطبري نقل رواية سيف عن عبيد الله بن سعد الزهري عن عمه يعقوب بن إبراهيم عن سيف. وهذه الرواية تتوافق ورواية السري مع تباينات طفيفة أشار إليها الطبري إشارة دقيقة. وبالرغم من ذلك، فإن الروايتين تتضمنان معاً وثائق مهملة؛ لكنهما من الجنس نفسه لا فرق[5]. والانطباع الذي يحصل للدارس هو أن سيفاً قدّم مرويته التاريخية في مراحل مختلفة من مراحل حياته، مع بعض التباين في

1 ـ Journal of the Royal Asiatic Society (1996) p. 239.

2 ـ مرتضى العسكري، عبد الله بن سبأ، القاهرة 1962/1381؛ وانظر أيضاً: خمسون ومائة صحابي مختلق، الجزء الأول، بغداد 1969.

3 ـ تاريخ مدينة دمشق، لا سيما في سيرة عثمان (تاريخ مدينة دمشق: عثمان بن عفان، تحقيق: سكينة الشهابي، دمشق 1984)، لكن انظر أيضاً في الأجزاء الأخرى.

4 ـ ابن أبي بكر؛ محمد بن يحيى، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، تحقيق: محمود يوسف زايد، بيروت، 1963.

5 ـ نشكّ في ما ذهب إليه فلهاوزن من الإيحاء بأن الطبري في استشهاده بهذا المصدر أو ذاك على وجه الفصل لا الوصل وعدم القرن بينهما إنما كان يريد أن ينبه إلى أن المادة الخبرية قد ضاعت في المصدر الآخر؛ ذلك أن الطبري كان محققاً ودقيقاً في ذكر مصادره.

الرواية. وقد صنع السري في الأخير كتاباً من هذه الروايات أو لربما يكون قد فعل تلك الفعلة مصدر أخباره شعيب.

تستند هذه الدراسة إلى نظرة مفادها أنّ سيفاً بحسبانه أخبارياً إنما حفظ مادة أخبارية ذات قيمة دائرة على الحقبة المبكرة في الإسلام

على أن هناك رواية أخرى عن سيف عن الشيعي نصر بن مزاحم المنقري معاصره الأحدث سناً. ولقد نبه بلانكنشيپ إلى أن نصر بن مزاحم هذا نقل أربع مرويات لسيف في مصنفه «وقعة صفين»[1]. وذلك مثلما أن مرويتين، سوى تلك، من مرويات سيف أوردهما الطبري مستنداً إلى نصر بن مزاحم[2]. ولا واحدة من هذه المرويات وجدت مطابقة لما نقله السري. والبادي أن نصراً انتقاها من مرويات سيف لكونها كانت تفيده في المنحى الذي انتحاه في منحاه الشيعي. ومن بينها خطبة منسوبة إلى علي بإسناد سليمان بن [أبي] المغيرة عن علي بن الحسين [زين العابدين][3]. وبحسب ما نقله السري، فإن سيفاً روى ـ عن طريق الإسناد عينه ـ خطبة لعلي يختلف نصها عن الخطبة الأولى اختلافاً جوهرياً[4]. وليس يبدو واضحاً ما إذا كان من استقى منه سيف أخباره قد نقل أكثر من خطبة كهذه أو ما إذا كان سيف نفسه هو من بدل نص الخطبة بحسب تبدل جمهوره[5].

1 ـ Blankinship, Challenge. Introd. p. xvi, n. 5.

2 ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشرة: غوجه وجماعة، ليدن 1879 - 1901، المجلد الأول، ص 3111، 3120. على أن هذه المرويات غير واردة في كتاب «وقعة صفين».

3 ـ نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة 1382هـ/ [1962م]، ص 10.

4 ـ سيف، ص 240 - 241؛ الطبري، تاريخ، الجزء الأول، ص 3078 - 3079.

5 ـ ورد في «وقعة صفين» للمنقري أن الخطبة أُلقيت يوم الجمعة بالكوفة أو المدينة؛ بينما في ما نقله السري ورد أنها خطبة علي الأولى (بالمدينة) بعد توليه الخلافة. وفي هذا الإيراد محاورة بالشعر بين الثوار المصريين وعلي لم يكن نصر بن مزاحم يميل إلى ذكرها. وفي مرويات سيف الثلاث الأخرى عن «وقعة صفين»، اثنتان منها كان إسنادهما قد استعمله في مرويات أخرى من نقل السري ـ ص 5 إذ أورد الطبري في تاريخه (الجزء الأول، ص 2514) اسم سعد بن طريف عن الأصبغ بن نباتة. وفي ص 9 أورد الطبري في تاريخه (الجزء الأول. ص 2332 وفي ما عداها) اسم الوليد بن عبد الله بن أبي طيبة (قرئت عن أبي طيبة) عن أبيه. والثالثة كان إسنادها =

والحال أن إحدى المرويات التي أوردها الطبري بالإسناد إلى نصر بن مزاحم تتعارض مع مروية عن نفس الحدث نقلها السري، حيث تمَّ تحريف بيت من الشعر[1]. ومع الأسف، فإن نصراً يقدم إلينا في ما نقله إسناداً ثانياً: عمر بن سعد بن أسد بن عبد الله عمن أدرك من أهل العلم. ومن المحتمل أن يكون نص الرواية يتبع رواية عمر بن سعد أكثر مما يقتفي أثر رواية سيف بن عمر[2]، ومن غير البيّن إمكان معرفة إلى أي مدى تختلف الروايتان. والسؤال الذي يبرز هنا هو ما إذا كان سيف قد نقل ما نقله من مرويات نقلاً منظماً، وذلك سواء أكان نقله إلى جمهور السُّنة أم إلى جمهور الشيعة، وإذا ما كان قد فعل هو ذلك، فإن المطلوب معرفة ما إذا كان انحيازه الإيديولوجي قد بدا واضحاً على النحو الذي تم الإيحاء به أعلاه. على أن ثمة ما يبرز على وجه التأكيد أن رواية السري ـ أكثر من رواية نصر بن مزاحم ـ إنما تعكس قناعاته الشخصية.

يتمثل مجمل مصنفات سيف، بحسب ما ذكره ابن النديم، في مصنفين اثنين: واحد في الردة والفتوحات الأولى، والثاني في مسيرة عائشة وعلي إلى العراق وموقعة الجمل[3]. وفي الاقتباسات الضافية التي أوردها الطبري، كما في القطعة الحديثة الاكتشاف، فإننا لا نعثر على أي تمييز واضح بين هذين المصنفين؛ ذلك أن تقسيم الكتابين لا بد حدث بعد السري بن يحيى. على أنه تنبغي الإشارة هنا إلى أن المدافعين عن كون سيف ثقة بوصفه

= إسماعيل بن أبي عميرة «عن» عبد الرحمٰن بن عبيد أبي الكنود (قرئت بن أبي الكنود). وفي مواضع أخرى ينقل سيف عن أبي الكنود، وهو شيعي من أنصار علي، عن الحارث بن حصيرة.

1 ـ سيف، ص261 - 262؛ الطبري، تاريخ، الجزء الأول، ص3111 - 3112. انظر أسفله الهامش 52 في تحريف شعر عبيد بن أم كلاب. وإن إسنادات سيف لهذه المرويات لتختلف. إذ أورد الطبري الجزء الأول من المروية برواية السري (الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3098 - 3099) لكنه أهمل الشعر المضاف معتقداً ربما بأن البيت الأول قد حرف. وبالفعل، فإن الشعر المضاف ما كان جزءًا من المروية نفسها التي أوردها سيف عن عمرو بن محمد عن الشعبي وقد أضافه هو نفسه.

2 ـ يذكر سيف مصدريه في الأخبار المشتركين، محمد وطلحة (انظر عنهما أسفله)، باعتبارهما مصدره من غير إسناد إضافي.

3 ـ ابن النديم، الفهرست، طبعة فلوجل، لايبزش 1871 - 1872، ص94.

ناقلاً للأخبار ـ نوخت وهايندز ودونر ـ إنما ركزوا اهتماماتهم بالأَولى على [أخبار] الردة وعلى الفتوحات[1]. هـذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن تجريح كرون لسـيف بوصفه وضّاعـاً للأخبار مغرضاً، إنما اسـتند إلـى الجانب الثاني، ولا سيما منه إلى الجزء الواسع المنشور الآن من المخطوطة الدائر على مواد وأخبار كان الطبري أهملها.

إن قراءة ـ ولو سـريعة ـ للقطعـة المتبقية من مصنف سـيف في مقتل عثمان وفـي موقعة الجمل من شـأنها أن تبـدي بجلاء عن تقسـيم منهجي لعرضه. وإن أغلبه ليدور على سردية للأحداث مطولة وموصولة وممتدة. وإن هذه المروية لتتقاطع مع مرويات أخرى قصيرة نسبياً تم إيرادها بغرض دعم الرواية الرئيسة بوجه عام. وبالرغم من أن هذه المرويات المتواترة تدعم، على العموم، الرواية الأساس، فإنه قد يحدث أن تباينها في بعض التفاصيل. والمثال على ذلك وصف قطع الأَنْسـاع عن هودج عائشـة وتنحيته عند نهاية موقعة الجمل. ففيما ورد في الرواية الشـائعة، فإن القعقاع بن عمرو ـ بطل المعارك المفضل لدى سـيف ـ وزفر بن الحارث هما اللـذان احتملا هودج عائشـة قبل قدوم محمد بـن أبي بكر وعمار بن ياسـر؛ على أن سـيفاً يورد روايتيـن قصيرتين تفيدان أن محمد بن أبي بكر وعمـاراً هما من قطعا عُرى الرحل واحتملا الهودج فنحياه، وذلك من غير إتيان على ذكر للقعقاع وزفر[2].

وبالنسبة إلى روايته الأساسية، فإن سـيفاً عادةً ما يذكر أسماء ما يفتأ يروي عنها علـى وجه الدوام، وأقل مصادره في الأخبار التي يرويها اسـمان وأحيانـاً تتعداه إلى ثلاثة فإلـى أربعة، وعادة من غير إسـناد إضافي، ففي ذلك عنـده كفاية. وهكـذا، فإنه في ما تعلـق بأخبار أحـداث العراق، فإن مصـدري أخباره همـا طلحة ومحمـد؛ عنينا بـالأول محمد بـن عبد الله بن سـواد بن نويرة من بني حُجَيم، وهي عشيرة من عشـائر قبيلة بني عمرو بن

1 ـ لا يشير دونر في مقاله عن سيف بن عمر بالموسوعة الإسلامية إلى الأجزاء الدائرة على مقتل عثمان ومعركة الجمل.

2 ـ سيف، ص342 - 343؛ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3216 - 3217.

تميم (والتي تنتسب عشيرة سيف ـ أُسَيِّد ـ بدورها إليها). وعنينا بالثاني طلحة بن الأعلم من بني حنيفة. أما في ما يتعلق بالأحداث التي دارت بسورية وفلسطين، فإنه يذكر مصدري خبر منهما يستقي مروياته: أبا حارثة وأبا عثمان. وقد تمَّ التعرف عليهما في مواضع أخرى بوصف الأول أبا حارثة محرز بن جارية، وهو قرشي من بني عبد شمس، وبوسم الثاني أبا عثمان يزيد بن أُسيد من بني غسان؛ وكلا الرجلين شامي، على نحو ما هو بيّن. وفي ما يخص الأحداث التي جرت بالمدينة، فإن سيفاً عادة ما يذكر كل هذه المصادر الأربعة مجتمعة. وعلى الرغم من أن لا أحد من هذه الأسامي المذكورة كان معروفاً من أي مصدر آخر غير سيف هذا، فإنه ليس ثمة من سبب وجيه ينهض لاتهامه بأنه إنما ابتدع هذه الأسماء ابتداعاً ووضعها وضعاً. على أنه يذكر كل واحد منها في مناسبة خاصة وبصفته الشخصية وبإسناده المخصوص. وفي مثل هذه الحالات، يبدو النقل جديرا بالثقة. والحال أن العودة البادية إلى مصادر معلومات مزدوجة أو متكثرة هو ما منح الفرصة لسيف حتى يعيد بناء تصوره الخاص للتاريخ المبكر بناءً متخيلاً. ومن البدهي ألا يكون سيف قد حصل على مرويات متطابقة تمتد عبر عشرات الصفحات من مختلف ناقلي الأخبار، سواء أكانت مثل هذه المرويات على شكل نصوص مكتوبة، على نحو ما ذهب إلى القول بذلك فؤاد سزكين[1]، أو كانت منقولة مشافهة؛ ذلك أن هذه المرويات إنما ألفها هو نفسه تأليفاً وجمع أشتاتها جمعاً. وبطبيعة الحال، فإن أخباريين آخرين ألّفوا مرويات شبيهة بهذه التي وضعها، بدءًا من مختلف المصادر، جاعلين منها مروية واحدة، مشيرين عادة إلى كل تباين بينها يكون ذا بال. والحال أنه من المفترض أن سيفاً لم يشر إلى مثل هذه التباينات بين الروايات في مروياته الطويلة والتفصيلية. وذلك على الرغم من أنه عزا العديد من مروياته العجيبة الغريبة المستحيلة التصديق إلى تعدد مَنْ أخبره بها مثنى وأكثر. ولهذا ذكر هو بالاسم محمداً وطلحة باعتبارهما مصدريه في ما ذكره من أن

1 ـ F. Sezgin,"Islam tarihinin kaynagi olmak bakimmdan hadis›in ehemmiyeti", in Islam Tedkikleri Dergisi 2 (1957), p. 19-36.

الأندلس وبــلاد الإفرنجة قد فتحت من لدن المســلمين أيــام خلافة عثمان وحكم عبد الله بن ســعد بن أبي السرح لمصر، وذلك لســتة عقود قبل وقوع الحــدث بالفعل[1]. كما قدّم أســماء أبي حارثــة وأبي عثمــان ومحمد وطلحة بوسمهم من أخبره بذلك الادعاء الذي ذهب إليه والذي مفاده أن عثمان قُتل وعمرُهُ ثلاثةٌ وســتون عامــاً، مناقضاً بهــذه الرواية كل المصــادر الأخرى، وملمحاً إلى أن الخليفة إنما توفي في العمر نفسه الذي توفي عليه الرسول، بما أراد به أن يوحي بضرب من الاتفاق العجيب ذي الدلالة المعجزة[2].

إنّ العودة البادية إلى مصادر معلومات مزدوجة أو متكثرة هو ما منح الفرصة لسيف حتى يعيد بناء تصوره الخاص للتاريخ المبكر بناءً متخيلاً

والحال أن في مثل هــذه المرويات بالذات ـ التي استند فيها سيف إلى مصدرين أو أكثر ـ تتبدى نزوعاته الأيديولوجية، التي حللها كل من فلهاوزن وباتريشــيا كرون، ظهوراً بادياً سافراً. ذلك أنه فــي العديد من المقاطع التي أوردها، جهد نفســه جهداً بينــاً في أن يضــاد أو يبطل المرويات التي ترسخت في التقليد العام والتي كانت مباينــة لموقفــه الأيديولوجــي الخاص. وحتى حيــن كان هو يحاول تجنــب النقل عن هذه المرويــات، يبدو بغاية الوضوح أنه كان مستأنساً بها غير غريبة عنه. وإنه ليعمد إلى إحداث ردة الفعل ضدها، سالكاً مسلك تشــويهها تشويهاً مقصوداً منظماً مبيتاً، وذلك عن طريق الحذف منها حذفاً ووضع مرويات مضادة الوضع. ولقد اعترف الطبري نفسه بالطريقة غير المعهودة التي اســتعمل بها سيف مقاطع من المرويات العامة، وعادة ما كان الرجل يــورد الرواية الجديرة بالثقة بعد أن يكون قد أورد رواية ســيف. وهكذا، مثلاً، فإنه بعدما أشار الطبري إلى المشورة التي أشار بها المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس على علي، بعد

1 ـ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص2817.

2 ـ تمَّ تغيير ســن عثمان تغييراً واضحاً في مخطوطة سيف المنشــورة (سيف، ص210) إلى ثلاثة وثمانين عاماً، وذلك أغلب الظن بسبب أن الكل كان يعلم علم اليقين أن عثمان كان أسن بكثير من النبي ﷺ لما مات.

تسـلمه الحكم، أورد روايتين عن مروية ابن عباس التي كان قد استعملها سيف استعمالاً انتقائياً وقد شوه سياقها[1]. وإن المحكية الشعبية الواردة من أعرابي يدعى العُرني في شأن الكلاب التي نبحت عائشة في ماء الحوأب، مذكرة إياها بتحذير النبي ﷺ لنسـائه [«**كيف بإحداكن إذا نبحت عليها كلاب الحوأب؟**»]. هـذا وقد أورد الطبـري الحكاية على النحـو التالي: حدثني إسماعيل بن موسى الفزاري قال: أخبرنا علي بن عابس الأزرق قال: حدثنا أبو الخطاب الهجري عن صفوان بن قبيصة الأحمسـي قال: حدثني العرني صاحب الجمل قال: بينما أنا أسـير علـى جمل إذ عرض لي راكب فقـال: يا صاحب الجمل تبيـع جملك؟ قلت: نعم، قال: بكـم؟ قلت: بألف درهم. قال: مجنـون أي جمل يباع بألف درهم؟ قال: قلت: نعم جملي هذا. قـال: وممَّ ذلك؟ قلت: ما طلبت عليه أحداً قـط إلا أدركته ولا طلبني وأنا عليه أحد إلا فته. قال: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا. قال: قلت: ولمن تريده؟ قال: لأمك. قلت: لقد تركت أمي فـي بيتها قاعدة ما تريد براحاً. قال: إنما أريده لأم المؤمنين عائشة. قلت: فهو لك فخذه بغير ثمن. قال: لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطـك ناقة مهرية ونزيدك دراهم. قال: فرجعت فأعطوني ناقة لها مهرية وزادوني أربعمائة أو سـتمائة درهم فقال لي: يا أخا عرينـة هل لك دلالة بالطريق؟ قال: قلـت: نعم أنا من أدرك الناس. قال: فسِرْ معنا، فسرت معهم، فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألوني عنه، حتى طرقنا ماء الحوأب، فنبحتنا كلابهـا. قالوا: أي ماء هذا؟ قلت: ماء الحوأب. قال: فصرخت عائشـة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالـت: أنا واللّٰه صاحبة كلاب الحوأب ردوني تقول ذلك ثلاثاً (المترجـم)]، إنمـا عارضها سـيف، وذلك بغايـة رفع كل ملامـة عن أم المؤمنيـن، وذلك بأن أورد هو قصة مختلقة عن سـلمى بنت زعيم غطفان مالك بن حذيفة بن بدر. ذلك أن سلمى، بحسب ما ورد في الحكاية التي رواها سـيف، كانت مع عائشة كما تكون الجارية مع سـيدتها، وكانت قد أعتقتها في ما بعـد. وخلال حروب الردة تألف حولهـا جماعة من قبيلتها

1 ـ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص 3082 - 3086.

ومن قبائل أخرى عصبية. فهي التي نبحتها كلاب الحوأب، ثم سرعان ما قتلها المسلمون [روى الطبري عن سيف في 490/3 - 492 في (ذكر ردة هوازن وسليم وعامر): أن أُمّ زِمل سلمى ابنة مالك بن حذيفة بن بدر كانت قد سبيت في عصر الرسول، في أيام أُم قِرفَة، فوقعت لعائشة فأعتقتها، فكانت تكون عندها، ثم رجعت إلى قومها. وقد كان النبي ﷺ دخل عليهنَّ يوماً فقال: إن إحداكنّ تستنبح كلاب الحوأب، ففعلت سلمى ذلك حين ارتدت وطلبت بذلك الثأر، فسيرت في ما بين ظفر والحوأب لتجمع إليها من تلك الأحياء، فلما بلغ ذلك خالداً، سار إلى المرأة وقد استكثف أمرها وغلظ شأنها، فنزل عليها وعلى جمّاعها فاقتتلوا قتالاً شديداً وهي واقفة على جمل أُمها، حتى اجتمع على الجمل فوارس فعقروه وقتلوها... الخ (المترجم)]. هذا مع تقدم العلم أن الحكاية يرويها سيف بالاستناد إلى مصدرين، لكن من غير ما إسناد كامل[1].

وبما أن مصدري الخبر اللذين ذكرهما سيف في مروياته هذه غير معروفين ولم تنقل عنهما أخبار في مصادر أخرى، حتى يتم إجراء المقارنة وتنقدح الحقيقة، فإنه يستحيل علينا أن نستدل على أية عناصر تلقاها من هذا الطرف أو من ذاك أو لم يتلقَّها من هذا أو ذاك ونعزوها إلى مصدرها. وعلى الرغم من كل التفاصيل التي يوردها، والتي يمكن أن يكون قد نقلها عنهما، فإن تماسك البناء الأيديولوجي عبر هذه المرويات يوحي بأنه كان هو نفسه وليس أحداً غيره المسؤول عن وضع المادة الخبرية.

على أنه ينبغي أن يختلف الأمر قليلاً حين يتعلق الأمر بصدقية المرويات التي أوردها سيف عن مصدر واحد وبإسناد ثابت؛ إذ يبدو أن هذه الإسنادات صحيحة، وذلك حتى لما يبدو مصدر الخبر الذي استقى منه سيف مرويته أو ناقلوه الآخرون غير معروفين. والحال أن المرويات التي تستند إلى السند عينه تكون متماسكة في ما بينها، وتعكس الرؤى نفسها والنزوعات

1 ـ المصدر السابق، ص 1901 - 1902. مصدرا الأخبار هما سهل بن يوسف السلمي من بني سليمة من الخزرج (انظر: M. Hinds, “Sayf b. 'Umar's sources”, p. 7) وأبو يعقوب سعد بن عبيد، والذي يبدو من أصل روايته أنه من بني أسد.

ذاتها. وقليلة هي المرويات المساوقة والمساوية بالفعل لمصادر أخرى، على نحو ما نبه إلى ذلك ناشر قطعة مصنفات سيف. فعبارة أبي بشير (مولى عبد الله بن سنان الكاهلي) ـ المشارك في موقعة الجمل ـ قد تم إيرادها من لدن الطبري عن أبي فقيم عن فطر بن خليفة[1]. وعبارة قالها علي نقلها سعد بن زيد بن عمرو بن نفيل، كما سلسلة الفضائل التي رواها البصري قتادة بن دعامة، كلاهما أورده سيف، وقد طابق ما أورده البخاري وضمنه في صحيحه بالاستناد إلى الأسانيد عينها[2].

وفي المواد الخبرية التي أوردها سيف بإسناد واحد ما حفظت فحسب المرويات القبلية، التي استأثرت باهتمام الدارسين المحدثين، وإنما حفظت أيضاً المرويات التي فقدت في التقليد التاريخي العام. وبهذا حفظ لنا سيف مرويات عروة بن الزبير، وهو حجة ثقة مدني [من المدينة المنورة]، عن الردة والفتوحات وموقعة الجمل، وقد أورد سيف روايته عن ابنه هشام بن عروة. ولقد أورد مرويات تحكي عن ثورة مكة على علي بلسان عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة (توفي عام 117هـ/734م)، وهو مكي قرشي من عشيرة أبي بكر تيم بن مرة، وقد كان قاضياً لابن الزبير ـ الخليفة المضاد ـ ومؤذناً[3]. وتبقى قطعتان شعريتان نقلهما سيف ذواتا أهمية بالغة بهذا الشأن، وقد قيلتا إبَّان مرحلة إعداد ثورة المكيين على علي. في واحدة منهما ينذر يحيى بن أمية ـ وكان والي عثمان على صنعاء الذي مول تمويلاً كبيراً الحملة على البصرة ـ طلحة والزبير من مغبة الالتحاق بمعاوية. هذا الذي ـ بحسب اتهامات يحيى ـ كان يطمح إلى تولي الخلافة، والذي بسبب طموحاته هذه أهمل الكثير من مطالب عثمان له بالمساعدة، وأنه لن يتردد في قتلهما. وفي الشعر الآخر، ينذر سعيد بن

1 ـ سيف، ص336؛ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3216.

2 ـ سيف، ص194 - 195. وفي إسناد سيف لقولة علي فإن إيراد اسم سهيل بن أبي خالد إنما ينبغي أن يكون تصحيفاً لاسم إسماعيل بن أبي خالد. وبالنسبة إلى سلسلة مرويات قتادة في الفضائل، التي نقلها سيف عن الصعب بن أبي عروبة، فإن إسناد البخاري فيها كان هو يحيى (القطان) عن سعيد (ابن أبي عروبة).

3 ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 7، ص333 - 335.

العاص عائشة من عاقبة مظاهرة الثورة على علي التي بادر إليها قتلة عثمان الحقيقيون؛ عنى بذلك ـ بحسب زعمه ـ طلحة على وجه الحصر. وما كف الرجل عن ترديد أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ وهو أخو عثمان بن عفان لأمه ووالي الكوفة المعزول ـ رجل شقي، متهماً إياه بكونه دمر ملك بني أمية للعراق، وبكونه صار يتمنى الآن ـ بعد أن فعل ما فعل، في هوس جنوني مخجل ـ أن يعيده[1].

حفظ لنا سيف مرويات عروة بن الزبير ـ وهو حجةٌ ثقةٌ مدني ـ عن الردة والفتوحات وموقعة الجمل، وقد أورد سيف روايته عن ابنه هشام بن عروة

ويحفظ لنا مصنفا سيف العديد من المرويات الأساسية عن الفقيه المدني السني والمؤرخ القاسم بن محمد (تقدر وفاته بما بين العامين 101هـ و112هـ/ 719م و730م)، وهو حفيد الخليفة أبي بكر[2]. ومروياته إنما نقلت إلى سيف عن الخزرجي الأنصاري سهل بن يوسف السليمي[3]. والبادي بكل تأكيد أن القاسم بن

1 ـ سيف، ص268 - 270. لم يورد الطبري هذه الرواية. وأغلب الظن أن مصدر أخبار سيف فيما يرويه عن أبي مليكة هو سعيد بن عبد الله الجمحي. وفيما يتعلق بالهجوم العنيف لسعيد بن العاص ضد قريبه الوليد بن عقبة، مما تجدر ملاحظته أنه ـ بحسب ما ورد في رواية منسوبة إلى الشعبي (سيف، ص261) ـ أن الوليد كان حاضراً بمكة زمن الثورة. ومع ذلك يتبين من أغلب المصادر الأخرى ذات الصدقية ومن شعره أنه كان يمضي أغلب وقته بالرقة وأنه لربما كان زار مكة زيارة قصيرة لتقديم دعمه للثورة. وتبدو مهاجمة سعيد بن العاص كما لو كانت جواباً منه على اتهام الوليد الأول لعلي في شعر أورده سيف في مكان آخر وقد تم تحريفه (سيف، ص215 - 216 وانظر أيضا: Madelung, The Succession of Mohammad, Cambridge 1997, p.188-189). هذا مع تقدم العلم أنه مما لا شك فيه أن قصيدة سعيد قيلت بعد أن قطع الصلة مع ثوار مكة بذات عرق وعودته إلى مكة (Madelung, Ibid, p.158-159). والبادي أن سعيد بن العاص قد خاب ظنه لا سيما في ضم طلحة إلى الذين حياهم الوليد بوصفهم المدافعين عن عثمان ما دام كان يعتبر طلحة بمثابة المسؤول الأول عن إراقة دم عثمان.

2 ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 7.ص 333 - 335.

3 ـ (انظر: M. Hinds, "Sayf b. 'Umar's sources", p.7) وتنبغي الإشارة هنا إلى أن مصدر خبر سيف المباشر، الذي كان اسمه القاسم بن محمد في تاريخ الطبري، المجلد الأول، ص3058، إنما هو شخص مختلف. وفي المخطوطة الجديدة المكتشفة تبدى اسمه كالتالي: الفيض بن محمد (سيف، ص14). ويحتمل أن يكون الاسم الصحيح هو الغصن بن محمد، وهو من مصادر سيف الأخبارية المعتادة: انظر في شأنه: (M. Hinds, Ibid, p.10).

محمد هــذا كان مهتماً بخلافة جــده. وقد أمدنا بمرويــات طويلة عن حروب الردة وعن بدايات الفتوحات خارج الجزيرة العربية. على أنه يلاحظ أن هذه الروايات توقفت ما إن تولى عمر الخلافة بعــد أبي بكر. وكما نبه إلى ذلك هاينــدز، فإن القاســم ما عيــن أي مصدر مــن المصادر التي اســتقى منها أخباره[1]. والحال أن روايته للأحداث إنما هي إعادة بناء لها، تضمنت العديد من التفاصيل؛ لكنها تفتقد إلى الصدقية على وجه العموم.

وقد نقل ســيف إلينا العديد من مرويات القاســم بن محمد القصار كان مدارها على خلافة عثمان وعلي. وهنا لا غرو ألفى القاسم نفسه في وضع حرج لا يحســد عليه. ذلك أن أباه محمد بن أبي بكر وجد نفســه متورطا في الثورة على عثمان بمصر وفي مقتل عثمان الذي أدين بســببه؛ إذ كان يناصر بحماس علياً، ولهــذا قتل لما كان والياً علــى مصر بعد أن اســتولى معاوية وعمرو بن العاص على حكم هذا الإقليم. على أنه في ذلك الوقت كان لا يزال فتى حدثاً، ثم كان أن أبرزته عمته التي كانت طوال عمرها معارضة لعلي. ولقد كان يعمد في ما رواه إلى محاولة إخفاء الصراعات بين الصحابة الكبار ما اســتطاع إلى ذلك سبيلاً، وما كان قط يشير الإشارة المباشرة إلى الدور الذي لعبه أبوه في هذه الصراعات. وقد أيد ســلوك عثمان تأييداً، وأكد على أن بعض التجديدات التي أحدثها عثمان إنما وافق عليها المســلمون عموماً[2]. ومع ذلك، فإنه ـ وضد المرويات الشــائعة ـ أكد على أن الثــوار الذين دخلوا على عثمــان غرفته إنما كانوا يرومون بكل بســاطة عزله لا قتله. على أن الخليفة مات ـ مع ذلك ـ بعد أن ضربوه بســيوفهم[3]. والحال أن هذه الرواية كانت محاولة منه غير مباشــرة للدفاع عن دور أخيه الذي لم يشر إلى حضوره في مقتل عثمان.

1 ـ M. Hinds, Ibid, p. 7.

2 ـ انظر ســيف، ص128؛ الطبري، تاريخ، المجلد الأول. ص3030، عندما تم الاستشــهاد بالقاسم في قوله: كان مما أحدث عثمان فرُضي به منه...، وانظر: ســيف، ص129: كان مما ســن عثمان فأطبق عليه الناس وتبعوه وهم متوافرون. وقد شــدد القاسم أيضاً على أن قرار عثمان بأن يحدَّ على النشوة في النبيذ قد أجمع الناس على موافقته عليه (سيف، ص123؛ الطبري، تاريخ، المجلد 1، ص3028).

3 ـ سيف، ص212.

هذا ولقد كان للقاسم أيضاً رأي تقديري إيجابي في أمر علي، وضد خط الدعاية الرسمي الأموي فقد كان يعدّه براء من أمر قتل عثمان. ثم إنه وصف علياً بأنه قد أسهم بنشاط في دعم أبي بكر في مجهوده الحربي ضد المرتدين، وذلك، بحسب ما روته عمته عائشة، زمناً ما كان فيه علي بعد قد بايع أبا بكر، وإنما كان يحيا في عزلة[1]. وبحسب رواية القاسم، فإن علياً التحق بعثمان إبَّان صلاة جنازة عبد الرحمٰن بن عوف[2]. وبعد مقتل عثمان تنبأ علي بالآثار الوخيمة على المسلمين، وعمد إلى إدانة كل أولئك الذين تعاملوا مع جريمة مقتله باستخفاف[3]. وشأن طلحة والزبير، فإنه رفض مفاتحة الثوار له في شأن دعم توليه الخلافة، وذلك بالاستشهاد بأشعار ذات نفحة تهديدية[4].

ما عيَّن القاسم بن محمد بن أبي بكر أي المصدر الذي استقى منه أخباره. والحال أن روايته للأحداث إنما هي إعادة بناء لها، تضمنت العديد من التفاصيل؛ لكنها تفتقد إلى الصدقية على وجه العموم

هذا ولقد وقف القاسم ـ في إبَّان الصراع بين علي وطلحة والزبير وعائشة ـ إلى جانب علي مع ذلك. ولقد نقل إلينا النقد الصارم الذي يقال: إن جارية بن قدامة السعدي ـ وهو داعم لعلي بدعم ثابت ـ كان وجهه إلى عائشة؛ لكونها خرجت من بيتها وصارت عرضة للسلاح. وقد استشهد بشعر لشاب أعرابي من بني سعد كان قد قال له محمد بن طلحة ـ وهو رجل عابد ـ في أمر المسؤولية عن دم عثمان: «دم عثمان ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الهودج ـ يعني عائشة ـ وثلث على صاحب الجمل الأحمر ـ يعني طلحة ـ وثلث على علي بن أبي طالب»، فصدَّقه على الأولَين وخطأه في الثالث «الأزهر»[5]. والحال أن

1 ـ See Madelung, The Succession of Mohammad, p. 52 - 53.

2 ـ سيف، ص130، بحسب الرواية المشتركة كان قد أوصى قبل موته ألا يصلي عليه عثمان، وأن يؤم إما الزبير أو سعد بن أبي وقاص صلاة جنازته. انظر: Madelung, The Succession of Mohammad, p. 93.

3 ـ سيف، ص235. نقل القاسم أيضاً أن المسور بن مخرمة ضرب معاوية في صدره بعد أن وعى هذا بأشد وعي يكون بمخاطر فتنة انقسام الأمة.

4 ـ سيف، ص223 - 224؛ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3074.

5 ـ الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3120 - 3121.

المروية الأخيرة لم تتضمن ما نقله السري والذي كيفه تكييفاً حتى يوافق الجمهور السني. هذا وقد عمد الطبري إلى تدعيمه بسلطة حجية الشيعي نصر بن مزاحم عن سيف. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لا يوجد داعٍ للشك في صدقية أية أخبار منسوبة إلى القاسم بن محمد. إنما هي تنم ـ على التدقيق ـ عن محاولة منه حذرة لتسويغ سلوك والده ودعمه المستميت لعلي في محيط يتسم بعدائه لذاكرة محمد بن أبي بكر.

وفضلاً عن هذا، نقل إلينا سيف أخباراً عن الكوفي حبيب بن أبي ثابت الأسدي (توفي عام 119هـ/736م)، وبعضها عن أحكام أراضي الخراج، وأحكام أولئك الذين افتتحت بلادهم بالعراق. وكان حبيب هذا مفتياً قديماً بالكوفة وعالماً شديد التعاطف مع علي. وقد نقل عن الإمام الشيعي محمد الباقر[1]. ويحسبه الشيعة الإمامية[2] أنه منهم، مثلما أن علماء الحديث المسلمين ينظرون إليه نظرة عالية التقدير[3]. وعلى الرغم من نزعاته المبغضة لبني أمية، فإنه كان ـ شأنه في ذلك شأن سيف ـ موالياً على الدوام للخلفاء المبكرين الذين تقدموا علياً. وليس يوجد ثمة من داعٍ يحمل على الريبة في صدقية الخبر الذي أورده سيف ونسبه إليه من أن علياً لما بلغه أمر مبايعة أبي بكر خرج إلى المسجد في قميص له ما عليه إزار ولا رداء وهو مُتعجّل كراهية أن يبطئ عن البيعة. فبايع أبا بكر، ثمّ جلس وبعث إلى ردائه فجاؤوه به، فلبسه فوق قميصه[4]. والحال أن هذه المروية إنما كانت بكل تأكيد مروية أيديولوجية، وما كانت هي بالواقعة التي حدثت بالفعل؛ وذلك بما أن حبيباً هذا ما ذكر أي سند لهذه الرواية. وقد أوردها سيف بحكم أنها تدعم دعواه الأيديولوجية الذاهبة إلى أن انسجاماً تاماً كان يسود جماعة الإسلام قبل الثورة على علي. وإنّ دعْم حبيب للخليفتين

1 ـ البلاذري، أنساب الأشراف تحقيق جويتاين، القدس 1936، المجلد 5، ص94.

2 ـ الأردبيلي، جامع الرواة، قم 1403/ [1982 - 3]، المجلد الأول، ص177. تبعاً للمدخل إليه هناك، فإنه كذلك ينقل عن الإمامين علي زين العابدين وجعفر الصادق.

3 ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 2، ص178 - 180.

4 ـ الطبري، تاريخ، المجلد 1، ص1825. أورد الطبري المروية هنا عن عبيد الله الزهري وليس عن السري بن يحيى.

الأولين ليشي أيضاً بما نقله عن محمد الباقر بأن علياً قد أقسم المرار على أنه ما أمر بقتل عثمان ولا أبدى موافقته على فعل ذلك[1].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الشيعي نصر بن مزاحم نقل حكاية عن كون علي أوجد الماء إيجاداً معجزاً لجيشه العطِش لما كان في طريقه إلى صفين، كما نقل سلسلة من المديح لعمار بن ياسر وذم قتلته الشاميين[2]. ولقد كان عمار الصحابي الأول الوحيد الذي أدانه سيف بلا هوادة بسبب من تورطه مع السبئية، الذين يعتبرهم أسلاف الشيعة والخوارج معاً، في مرويته. ويبدو أن حبيب بن أحمد بن أبي ثابت هذا قد دافع عن الزعيم الشيعي الثائر المختار [بن أبي عبيد]. وقد نقل أن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية قد قبلوا منه هدايا[3]. والحال أن الادعاء بأن ابن عمر قبل هدايا من كذاب مبير قد أغضب المعجبين به ورفضوه رفضاً صريحاً[4].

بالنظر إلى التزام سيف الإيديولوجي الصارم وميله إلى التزيد في الرواية والوضع، فإنه من الأمر المفاجئ أشدَّ مفاجأة أن توجد ثمة أمارات على محاولات منه ظرفية للتلاعب بالنص، وذلك حتى في تقاليد إسناده الوحيد، بغية منه في الإتيان بمواد داعمة لنظرته إلى التاريخ. وفي نقله لمقطوعتين شعريتين للأموي الوليد بن عقبة بن أبي معيط، عمد سيف عنوة إلى استبدال اسم علي بدليم [!]، وهو لقب عمار بن ياسر، وذلك بغاية حماية الأول من الملامة[5]. كما عمد إلى تحريف شعر لعبيد بن أم كلاب، الرجل الذي أنبأ عائشة بتولي علي الخلافة لما كانت في طريقها من مكة إلى المدينة، والذي، إذ واجه رد فعلها السلبي، اتهمها في شعره بأنها كانت

1 ـ البلاذري، أنساب الأشراف، المجلد 5، ص 94.

2 ـ المنقري، وقعة صفين، ص 144، 215 - 216، 324، 328. كان من أخبر نصراً بأخبار حبيب بن أبي ثابت هو نفسه مصدر سيف: عبد العزيز بن سياه (الأسدي الحماني الكوفي). وقد نعت بكونه شيعياً غير أنه ثقة؛ انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 6، ص 340 - 341.

3 ـ البلاذري، أنساب الأشراف، المجلد 5، ص 270.

4 ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 2، ص 179 - 180.

5 ـ Madelung , The Succession of Mohammad, p. 189 - 190.

هي من أمـــر بقتل عثمان؛ فمـــا كان من ســـيف ـ في روايته التـــي نقل عن الشعبي ـ إلا أن استبدل اسم عمار باســـم عائشة[1]. ويبدو أن سيفاً بدّل اسم المخزومي عمر بن سفيان بن عبد الله الأسدي إلى عمرو بغاية أن يلمح إلى أن المقصود هو عمرو المذكور بالاسم في شعر آخر للوليد بن عقبة باعتباره أحد المحرضين على عثمان، ولكي يبرئ هو عمرو بن العاص، الذي لا شكَّ أنـــه كان هو المقصود في القصيدة[2]. وإن بغضه الشـــديد لبطل علي بجنوب الجزيرة العربية مالك الأشـــتر، الذي صوره بصورة زعيم الســـبئية الجاحد الفاسد، هو الذي ألجأه إلى تحريف رواية كليب الجرمي الدائرة على وصف الأشـــتر لمنازلتـــه لعبد الله بـــن الزبير أيام موقعـــة الجمل. فبحســـب هذه الرواية، التي نقلها الطبري عن سيف بمعزل، فإن الأشتر روى أنه منح لابن الزبير فرصة للفرار، موحيـــاً بذلك أنه فعل ما فعل حباً في خالته عائشـــة وإكراماً لها[3]. وعلى الضد مما ورد، ففي رواية ســـيف إنما عبّر الأشـــتر عن خوفه من ابن الزبير، واصفاً إياه بكونه أجلد المعارضين وأشرســـهم، وقال: إنه لولا أنّ النزف أدركه لقتله، وأنه اضطرب تحته فأفلت[4].

وبحســـبانه راوية موهوباً ومحدثاً يحدث بأعاجيب، فإن ســـيفاً استدعى وجهين في أُحدوثاته: وجه الرجل الخبيث، ووجه البطل الشعبي. يتعلق الأمر ـ كما هو معلوم ـ باليمني عبد الله بن ســـبأ وبالتميمـــي القعقاع بن عمرو بن مالك. هـــذا مع تقدم العلم بـــأن خلفيتهما التاريخية قد درســـت الدراســـة الكافية، ولهذا ترانا نعيد فحصها هنا بإيجاز شديد.

1 ـ ســـيف، ص262. كما أشـــرنا إلى ذلك أعلاه فقد أســـقط الطبري هذه الرواية الشـــعرية من مروية الشعبي وأورد الشـــعر غير المحرف عن مصدر نصر بن مزاحم في الأخبار عمر بن سعد (الطبري، تاريخ، المجلد الأول، ص3111 - 3112).

2 ـ ســـيف، ص145؛ ابن عســـاكر، عثمان بن عفان، ص306 - 307؛ Madelung, The Succession of Mohammad, p.91,97.. كان عمرو بـــن العاص قد اتهم أولاً من قبـــل الوليد بن عقبة بعد مقتل عثمان (Ibid, p.184-186)

3 ـ الطبري، تاريـــخ، المجلـــد 1، ص3162. ذكر الطبـــري المروية عن محمد بن ســـوقة (الغنوي الكوفـــي. انظر أيضاً: ابن حجر، تهذيـــب التهذيب، المجلـــد 9، ص209 - 210) الذي كان هو نفسه مصدر خبر سيف.

4 ـ سيف، ص360.

يتبـدى الخبيث عبد الله بن سـبأ ـ الملقـب بابن السـوداء ـ لفترة قصيرة في التقليد التاريخي العام خـلال الحقبة الأخيرة من حكم علي بعد صفين، وذلـك بوصفه أحد أخلص أنصاره وأحد صغار قواد الجيش. والسبئية ـ التي سـميت بكل تأكيد بعد وفاته ـ لم يشـر إليها إلا زمن المختار، لما ظهر أفرادهـا باعتبارهم تلامذته الشـيعيين الغلاة. وفي الكتابات التاريخية الشيعية، يُصور ابن سبأ باعتباره مؤسس طائفة عاب عليهـا عليٌّ طَعْنَها في الخلفاء الثلاثة الراشـدين، والتـي بعد وفاة علي أعلنت في المدائن أنه لا يزال حياً وأنه سوف يرجع الرجعة[1]. وفي رواية سيف، فإن ابن السـوداء كان يهودياً من صنعاء، أُمُّه سوداء، أسلم ست سنوات قبل مقتل عثمان، وبدأ يعلن أن محمداً سـوف يعود إلى الأرض، وأن عليـاً هو وصيه لولا أن خذلته جماعة الإسلام. ولقد جال ابن السوداء هذا في مدن الإسلام محرضاً إلى أن قامت الثـورة على عثمـان وولاتـه. وقد تبعه بعـض الأتبـاع، لا سـيما بالبصـرة والكوفة ومصـر، ويتعلـق الأمر بمـن صـاروا يعرفون بالسبئية التي ثارت على عثمان وقتلته.

وبحسبانه سيف راويةً موهوباً ومحدثاً يحدّث بأعاجيب؛ فإنه استدعى وجهين في أخباره: وجه الرجل الخبيث، ووجه البطل الشعبي

إن مروية ابن سـبأ الخبيث هذه إنما وضعها سيف بن عمر وضعاً، وقد عمـد إلى نقل المروية الأساسـية في صـورة مقاطع من روايـة مطولة عن مصدر غير معروف بدوره هو يزيد الفقعسي (كانت فقعس عشيرة من عشائر قبيلة بني أسـد)، يبـدو أنها ألفت تأليفـاً بعد الفتنة وظهور غلاة الشـيعة السـبئية بالكوفة بوقت قصير. والحال أن مصدر الأخبار التي يرويها سيف ـ والذي نقلها بـدوره عن يزيد ـ إنمـا كان هو أبـا روق عطية بن الحارث الهمذاني؛ وهو عالم معروف ثقة وإخباري ومفسر للقرآن[2].

1 ـ النوبختي، فرق الشيعة، نشرة ريتر، إسطمبول 1931، ص 19 - 20.

2 ـ ابن حجر، تهذيب التهذيب، المجلد 7، ص 234؛ وانظر أيضاً:

U. Sezgin, Abu Mihnaf, Leiden 1971, index s.v. Attiya B. Alharit.

ونظرة الفقعسي إلى التاريخ في كتابته لمرويته عن الفتان الأكبر إنما عبّر عنها هو ذاته في قصة تحكى عن الحبر بولس (بولس أو شاوول) ـ مفسد النصرانية ـ التي نسبها ـ لا محالة عن وهم وتدليس ـ إلى عبد الله بن عباس. وبحسب هذه الحكاية، فإن بولس كان في البدء ملك بني إسرائيل، وكان قد أقلق راحته نجاحُ النصارى الأوائل الباهر في تنصير بني جلدته. وكان قد أمر شَعْبَهُ بتقتيل هؤلاء النصارى؛ لكنهم ما نشبوا أن فروا بجلدهم. فما كان منه إلا أن اعتزل مملكته، وتردى برداء النصارى حيلة منه اتخذها كي يفتنهم عن دينهم. وكان أن أوهم زعماء النصارى أن المسيح تبدى له وهداه إلى اتباع إيمانهم. ثم إنه بعد أن استوثقهم، حملهم على تغيير قبلتهم، واستحدث في أنفسهم أن الله أحل لهم كل شيء، وأنه ليس عليهم أن يردوا الشر بالشر، وأن عليهم أن يزهدوا في الجهاد، وأن عيسى ابن الله. وكان أن انخدع فريق كبير بتعاليمه، اللهم إلا طائفة قليلة من المؤمنين فرت بدينها إلى شبه الجزيرة العربية. وقد لقي ثلاثون من رجال دينهم محمداً وآمنوا بدعوته. وفي خاتمة هذه المحكية، علق المؤلف بالقول: إن دور پولس بين النصارى لأشبه ما يكون بدور ابن سبأ في جماعة المسلمين[1].

هذا وقد تبنى سيف بن عمر الصورة التي رسمها يزيد الفقعسي للفتان ابن السوداء ومفهومه عن السبئية تبنياً تاماً، وما كان منه إلا أن طور المروية المتخيلة، بعد ذلك، واستثمرها في إعادة بنائه لحادثة ولاية علي الخلافة ولموقعة الجمل، كما عرضها باسم مصدري خبره. ففي محكيته لعب السبئيون دوراً كبيراً في انتخاب علي، وأجبروا الزبير وطلحة على إعلان ولائهما له. وكان علي يبغضهم، غير أنه ما كان يستطيع أن يخلص نفسه منهم أو أن يكف جماحهم. وما قادت عائشة وطلحة والزبير ثوار الجيش المكيين لأنهم كانوا يعارضون علياً؛ وإنما فعلوا ذلك لأنهم ابتغوا

1 ـ سيف، ص 132 - 135. لم ينقل الطبري هذه الحكاية. وقد نوقشت في سياق مرويات إسلامية أخرى عن الحواري بولس في مقالة حديثة كتبها فان كونيكسفلد:

"The Islamic image of Paul and the Origin of the Gospel of Barnabes", in Jerusalem Studies in Arabic and Islam 20 (1996), p. 200-228.

معاقبة أوباش السبئية لقتلهم عثمان. وكان أن حاولوا قبل موقعة الجمل إجراء الصلح مع علي، غير أن السبئية من جيش علي ـ ومخافة منهم من أن يتابَعوا بما اقترفوه ـ بدأوا المناوشة وأعلنوا الحرب. وبعد أن انتصر الكوفيون كان أن تسببوا لعلي في المزيد من المتاعب، وذلك بأن اتهموه بأنه استولى على غنائم الحرب التي كانوا قد غنموها وكانوا الأحق بها. على أن بعض المحكيات التي يوردها سيف قد تشير إلى أن هذه المحكية إنما كان تبناها حينها أخباريون قبليون آخرون[1].

وعلى النقيض من هذه الصورة، تتكشف صورة بطل سيف الشعبي القعقاع بن عمرو بوسمه الحاضر حضوراً كاسحاً في مروياته؛ وذلك، أولاً، خلال حروب الردة، وبعد ذلك، بوصفه قائداً لخالد بن الوليد أثناء فتوحاته بالعراق والشام، فمحارباً استثنائياً في المعارك من القادسية إلى نهاوند، ثم قائداً عاماً لجيش الكوفة[2]، وأخيراً بوصفه أشد مناصري علي وفاءً له في معركتي الجمل وصفين[3]. وقد كان الرجل نكرة في التقليد التاريخي العام. ولهذا السبب ذهب العسكري وبلانكنشيپ إلى القول: إنه شخصية مختلقة اختلاقاً. ذلك أن بلانكنشيپ كان قد أشار إلى أن أخا القعقاع

1 ـ انظر مرويات المستنير بن يزيد النخعي في كتاب سيف، ص 70 - 71، ومرويات مخلد بن قيس العجلي في كتاب سيف، ص 265 - 266، ومرويات عبد الله بن المغيرة العبدي في مصنف سيف، ص 310 - 311. وكلها مرويات متأخرة من حيث مادتها.

2 ـ سيف، ص 80. والحال أن نسبة هذه المروية المتعلقة بأعيان الكوفة وبولاة المدن التي كانت تحت السيطرة الكوفية أيام مقتل عثمان إنما تتضمن أخطاء متعددة. إذ يحتمل أن تكون نسبتها إلى (أبي روق) عطية (بن الحارث) خاطئة. وإلا فإن أبا روق يتبدى بوسمه ناقلاً لمرويات تاريخية، وليس بوصفه مؤرخاً يعيد بناء المواقف التاريخية. ولا يشير في أي مكان آخر إلى القعقاع. لاحظ أن استشهاد سيف المقتبس عن عطية بن عدي بن حاتم ينتهي، في تاريخ الطبري المجلد 1، ص 2071، في الصفحة 2072 السطر 4، والنص الذي يعقبه، والذي يذكر فيه القعقاع، يشمله الإسناد السابق الوارد في الصفحة 2067. وإن المروية لينبغي أن تنسب بالأحرى إلى مصدر خبر سيف المستنير بن يزيد النخعي الذي كان وصف القعقاع بكونه قائد الحرب في الكوفة. ومن غير المؤكد ما إذا كان خطأ النسبة زلة من سيف أو زلة من ناقل آخر أم محاولة إلى تحديث المروية.

3 ـ انظر: سيف، ص 339؛ الطبري، تاريخ، المجلد 1، ص 3215.

عاصم بن عمرو العمري ـ على نحو ما هو مذكور في مروية سيف ـ قد ذكره خليفة بن خياط في مرويته عن موقعة صفين مع نسب الأُسَيِّدي[1]. وعلى هذا الأساس، ذهب إلى أن سيفاً باعتباره يتحدر هو نفسه من قبيلة أُسَيِّد بن عمرو بن تميم، إنما رام تمجيد عشيرته، وكان مسؤولاً مسؤولية شخصية عن اختلاق بطله هذا اختلاقاً، وذلك أكثر مما قد يكون فعل ذلك مزودوه المدّعون بالأخبار[2]. غير أن هذا الزعم ليس يستقيم، وذلك بالنظر إلى التباين والتعدد الحاصل بين المرويات الواردة عن القعقاع التي ذكرها سيف. ولقد سبق أن لاحظ فلهاوزن وجود تفاوت بيِّن في ما أورده سيف عن بطله من حكايات: فهو ـ من جهة ـ تابع لمدّعية النبوة سجاح، أسره المسلمون المعارضون له أيام حروب الردة، وهو من جهة أخرى وجه بطولي كبير للإسلام في كسر شوكة المرتدين واستتباعهم[3].

وضدّ ما ذهب إليه فلهاوزن، كشفت لانداو ـ تاسرون أن جلاء حقيقة الأمر يقتضي القول: إنه كان هناك رجلان كلاهما اسمه القعقاع، وقد ورد ذكر اسميهما معاً في مرويات سيف: واحد ينتمي إلى بني عقفان بن يعرب بن تميم، وكان داعماً بالمال لسجاح. والآخر من بني عمرو بن تميم هو الذي حارب المرتدين وشكل عند سيف بطلاً[4]. وإذا ما قرأ المرء عمل سيف قراءة ممعنة تكشف له بوضوح ـ مع ذلك، أنه لا هو ولا مصدره في قصة تورط القعقاع مع المتنبئة سجاح ـ الصعب بن عطية بن بلال ـ كان يدور بخلدهما وهما يتحدثان عن القعقاع أنهما يتحدثان عن شخصين اثنين وليس عن شخص واحد. فحسب الصعب فإن القعقاع الذي دعم سجاح إنما هو الشخص نفسه نصير علي الشهير في معركة الجمل، والذي كان بفعل دفاعه المستميت عن علي ووقوفه إلى جانبه قد نفاه معاوية من الكوفة إلى القدس[5]. والحال

1 ـ خليفة بن خياط، تاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دمشق 1977، ص124 - 125.

2 ـ M. Y Blankinship. Challenge to the Empires, Introd., p. XXII, transl., p. 8, n.56.

3 ـ J. Wellhausen, “Prolegomena zur altesten Geschichte des Islams”, p. 14.

4 ـ E. Landau - Tasseron, Der lslam 67 (1990), p. 16.

5 ـ الطبري، تاريخ، المجلد 1، ص1920.

أن مناصر علي هذا ـ كما يشهد على ذلك عدد آخر من المرويات ـ هو نفسه بطل المعركة الذي تحدث عنه سيف في غزواته والذي كان ينتمي إلى بني عمرو. وإن النص الذي أسندت إليه لانداو ـ تاسرون دعواها بأن مؤيد سجاح كان من بني عقفان ـ وهو النص الوارد في مروية الصعب بن عطية ـ ليبدو أنه كان محل تصحيف. ففي المروية نفسها، كان الصعب قد قال: إن بني عقفان كانوا بالنسبة إلى سجاح من «بني أبيها عقفان»[1]. وفي المقطع الذي استشهدت به لانداو ـ تاسرون وردت العبارة «بني أبيه بني عقفان»، والتي ينبغي على ما يبدو أن تُقرأ: «بني أبيها بني عقفان»[2]. هذا ولقد رام الصعب ـ بكل وضوح ـ أن يفسر بأن معاوية أجبر القعقاع على العيش بين قوم سجاح بسبب كونه قد عمد في البدء إلى مساندتها. والحال أنه لئن كان بنو عقفان أهل أبيه، فإنه لن يكون في الحقيقة قد نفي، وإنما سمح له ـ على التحقيق ـ بالالتحاق ببني جلدته. والحق أن القعقاع بن عمرو من بني عمرو إنما كان يدعى ـ أحياناً ـ ابن الحنظلية[3]، بما دل على أن أمه كانت من قبيلة حنظلة التي تنتمي إليها عشيرتا يعرب وعقفان، والحال أن قرابته من جهة الأم قد أثرت عليه في أمر دعم المتنبئة.

إنّ سيفاً باعتباره يتحدر هو نفسه من قبيلة أُسَيِّد بن عمرو بن تميم، إنما رام تمجيد عشيرته

والمستفاد مما تقدم أن التعارض بين القعقاع ـ تابع سجاح ـ والقعقاع ـ المقاتل عن الإسلام ضد المرتدين ـ كما ورد في رواية سيف، يبقى أمراً غير قابل للحل. ومن بين الدورين المنسوبين إليه على السواء فإن دور الداعم للمتنبئة هو الأقرب إلى أن يصدق؛ وذلك بما أن سيفاً والتقليد التاريخي الذي يمثله إنما كانا أميل إلى اختلاق مرويات تصور بطلهما بصفته كان صحابياً للنبي ومدافعاً قوياً عن أبي بكر في سحقه الردة. ومن

1 ـ المصدر السابق، ص 1911.

2 ـ المصدر السابق، ص 1920. ثمة قراءة أخرى بديلة لكنها جد مستبعدة: بني أمه.

3 ـ المصدر السابق، ص 3156 - 3164.

ثمة، فـإن القعقاع بن عمرو الأسـيدي ـ الـذي جعل منه سـيف بطلاً له ـ ما كان ـ إذا ما هو حقق أمره ـ قط صحابياً أو مناصراً لأبي بكر.

على أنه وجد ثمة قعقـاع تميمي كان في الوقت ذاتـه صحابياً ومناصراً لأبـي بكر هو القعقاع بن معبد بـن زرارة بن دارم، وكان عضـواً في بعثة من تميـم وردت على النبي محمد. وبحسـب مروية عن عبد الله بـن الزبير، كما نقلها ابن أبي مليكة وأوردها البخاري في صحيحـه، فإن أبا بكر ـ الذي كان قد أعجب به ـ اقترح على النبي أن يعينه أميراً على تميم؛ بينما كان عمر قد فضل عليه الأقرع بن حابس التميمي. ويقال: إن آية قرآنية (سـورة الحجرات: الآية 4 [﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾] [المترجم]) كانت ذات صلة بهذا الخلاف بين مستشاري النبي[1]. والحال أن الصلة الوثيقة بين القعقاع بن معبد وأبي بكر لتؤكدها واقعة أن طلحة ـ وهو صديق أبي بكر الحميم ـ تـزوج بنت القعقاع خولـة التي أنجبت له ابنه موسـى بن طلحة[2]. ويبدو أنه من غيـر الممتنع أن يكون هذا القعقاع بـن معبد إنما تملك قصته هذه سيف أو مصادر أخباره، وخلط بينه وبين بطله الشعبي القعقاع بن عمرو، صانعاً من هذا الأخير الصحابي وشريك أبي بكر.

وفي مروية سـيف، فـإن القعقاع بن عمـرو يظهر ـ أول مـا يظهر ـ بوصفه من سـلم إليه أبو بكر قيادة جيش المسـلمين الذي كان قد توجه لمحاربـة قبائل بنـي عامر وكانت قـد ارتدت. وقد ذكر سـيف مصدرين لأخباره: سـهل بن يوسف وعبد الله بن سـعيد بن ثابت؛ وكلاهما أنصاري من بني سليمة من الخزرج، وما كانا أشارا إلى القعقاع في أية مروية من

1 ـ ابن حجر، الإصابة، القاهرة 1323/ [1905 - 7]، المجلد 5، ص245.ابن عبد البر، الاسـتيعاب، حيدرآباد 1336/ [1918] تحت مدخل: القعقاع بن معبد. انظر:

E. Landau - Tasseron, " Processes of Redaction: The Case of the Tamimite Delegation to the Prophet Muhammad ", in Bulletin of the School of Oriental and African Studies 49 (1986), p.265.

2 ـ ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، نشرة سـاخاو وجماعة من المستشرقين، ليدن 1905 - 1940، المجلد 3، ص52؛ المجلد 5، ص120؛ المجلد 6، ص147؛ الزبيري، كتاب نسب قريش، نشرة ليفي بروفنسال، القاهرة 1953، ص281.

مروياتهما الأخرى[1]. والحال أنه لربما كانت الرواية قد تعلقت أولاً بالقعقاع بن معبد. وفي مروية أخرى أوردها سيف عن عمرو بن محمد عن الإخباري الكوفي الشهير الشعبي، يظهر أبو بكر قائلاً عن القعقاع بن عمرو: إنه لا يهزم جيش فيهم مثل هذا، وذلك لما بعث به لنصرة خالد بن الوليد في فتحه الأول للعراق، وباعتباره من أوصاه ألا يغزو معهم أحد ارتد[2]. وإن مثل هذا الإطراء، ومثل هذا الأمر، ليصعب أن يكون قد قيل في الرجل الذي كان هو نفسه مشاركاً للمتنبية سجاح، وكان قد ألقي عليه القبض من لدن معارضيه من المسلمين بطريقة مهينة. والحق أنه يمكن أن يكون قد قيل في حق القعقاع بن معبد وليس في صاحبنا هذا. على أن مثل هذه المشاركة من لدن القعقاع بن معبد في قتال المرتدين والفتح الأول للعراق تبقى محض افتراض ما دام لا يوجد مصدر مستقل للخبر يؤكده. والحال أنه في تقديم سيف لبطله المفضل هذا، فإنه لا يوجد إلا وجه بطولي واحد، هو القعقاع بن عمرو، ولا وجود لقطيعة أو لفترة يمكن أن تؤشر على ما إذا كان القعقاع بن عمرو قد سد مسد القعقاع بن معبد في تاريخ الفتوحات.

في مروية سيف، فإن القعقاع بن عمرو يظهر بوصفه من سلم إليه أبو بكر قيادة جيش المسلمين الذي كان قد توجه لمحاربة قبائل بني عامر وكانت قد ارتدت

وبالنظر إلى التعدد الشديد في الأسانيد ـ والتي كان العديد منها عبارة عن أخبار آحاد ـ في المرويات التي تذكر أخبار القعقاع بن عمرو، فإنه لا يمكن أن نبدي إلا القليل من الشك في أن يكون بطل سيف معروفاً قبل زمن سيف. ومن المؤكد جداً أنه كان معروفاً أيضاً لدى مصدري أخباره محمد وطلحة. ومن الصعب معرفة قدر الدور الذي لعبه سيف نفسه في صناعة أسطورة القعقاع بن عمرو. وباعتبار سيف أسيدياً،

1 ـ الطبري، تاريخ، المجلد 1، ص 1899.

2 ـ المصدر السابق، ص 2021. من المعلوم أن مصدر أخبار سيف هنا، عمرو بن محمد، مجهول الهوية.

فإنه لا شك عمد إلى التوليف بين كل المرويات التي كان يمكن أن يعثر عليها حول الأعرابي من بني جلدتــه، جاهدا كل الجهد (وما كان ليكتب له النجاح دومــاً) في أن يؤلف بينهــا تأليفاً في محكية واحدة متســقة ومقنعة. وهكذا عمل التقليد القبلي ـ لا سيمـا ذاك الذي يمثل الإحساس المضــري القريب مــن قريش ـ علــى جعل زعيــم قبيلة بني أُســيد بن عمرو بــن تميم الكوفية الصغيرة بطل معارك مميــزًا وزعيماً بلا مدافعة للأغلبية الكوفية الوفيــة. والحال أنه يمكن أن يكــون القعقاع الحقيقي محارباً شجاعاً وشــاعراً لعب دوره المتواضع في معارك زمنه وصراعاته قبل أن يحكم عليه معاوية بالخمول في المنفى بسبب دعمه القوي لعلي، لكن إذا ما نحن اعتبرنا الســياق الأوســع للفتوحات الإســلامية الكبرى ولتاريخ الكوفة، فإنه كان أقل قيمة من أن يعتبره التقليد التاريخي العام أو يحفظ ذكره.